الفينيقيون

منشأهم وتاريخهم

لوديع ابي فاضل

من هم الفينيقيون ومن اين جاؤوا ؟ هذا سؤال طالما تخبّط بالاجابة عنهُ الباحثون لما احاط به من الغموض ولما تقلب على البلاد من الحوادث الجسام التي طمست كثيراً من آثارها واضاعت معالمها. ومن نكد الدنيا ان تكون سوريا مطمح الطامعين وطريق الفاتحين وقبلة الدنيا والدين فكان موقعها الذي تحسد عليه اكبر نكبة منيت بها فاصبحت موطىء اقدام الغزاة والطريق الموصل بين اكبر مدنيتين قديمتين اعني بهما مدنية ما بين النهرين ومدنية مصر وميدان النزاع بين شعوب آسيا ومصر اولاً ثم بين اوربا والشرق بعد ذلك

وتاريخ سوريا القديم محوط بالغموض لتضارب اقوال الثقات وتباين آرائهم ومبالغة الكتّاب الاقدمين في وصف انتصارات ملوكهم والاقتباس من شأن خصومهم . والقليل الذي لدينا مما سطره المؤرخون الاولون كهيرودتس واسترابون او نقله تيودور الصقلي عن فيلو الجبيلي المعروف عند الافرنج بفيلو بيبلوس لا يروي غليلاً ولا يتخذ حجة لدى الباحثين

واهم الموارد التي يعتمد عليها المؤرخ الحديث هي الآثار الناطقة التي اكتشفت حديثاً في المدن السورية والفينيقية منها خاصة وما اكتشف في مصر وبابل واشور مما له علاقة بذلك

زعم هيرودتس ان الفينيقيين جاؤوا من البحر الاريتري وهو عند اليونان المتأخرين البحر الاحمر . انما قصد هيرودتس بذلك الاوقيانوس الهندي وخليج فارس ضمنه لانهُ لم يكن يفرق بين هذا وذاك وعما يثبت انهُ لم يقصد البحر الاحمر انهُ استسل الخليج العربي لهذا البحر حينما تكلم عنهُ

والحقيقة هي ان الفينيقيين ساميون جاؤوا الى سوريا من جزر الخليج الفارسي لان آباءهم الاولين كانوا يعتقدون انهم جاؤوا من الشرق من بلاد بحرية وهذا الذي جعلهم يتخذون لهم جزراً بحرية يقطنون فيها او كما قال هيرودتس ان هذا الشعب حالما استوطن بلاده الجديدة

اخذ يعمل بمحل تاجر مصر واشور عبر البحار والى اقصى البلدان

والغريب في امر الفينيقيين هو انهم حينما قدموا الى سوريا احتلوا ثلاث جزر اصبحت فيما بعد مدناً عامرة وهي صيدا التي كانت فيما مضى جزيرة صخرية قائمة في عرض البحار وعلى محاذاة الشاطىء فاتصلت بالبر مع كرور الايام . وارواد لا تزال جزيرة صغيرة للآن . وصور كانت جزيرة قائمة في عرض البحر حتى ردم الاسكندر المكدوني الماء الفاصل بينها وبين البر وتملكها عنوة بعد ان استعصت عليه مدة سبعة أشهر

وفعل الفينيقيون بمدنهم الصغيرة ما كان يفعله اخوانهم الساميون فحصنوا هذه المدن وأقاموا حولها المتاريس وامتنعوا بالبحر عن العدو القادم اليهم من البر

والفينيقيون اخوان لاهل الجزر العربية وسواحل العربية على الخليج الفارسي كأهل الكويت والبحرين وعمان الذين عرفوا منذ القديم بالغوص على اللؤلؤ وحمل تجارة الشرق الى الغرب وتجارة الغرب إلى الشرق وكانوا حلقة الاتصال بين الهند والشرق الادنى فبقي هذا الفريق الشرقي في الخليج العجمي واستأثر بالتجارة الشرقية ورحل اخوانهم الفينيقيون إلى الغرب واحتلوا شواطىء سوريا واستأثروا بتجارة البحر المتوسط مدة طويلة من الزمن وساعدهم هواء الاقليم الجديد فكانوا أصح بنية وأمضى عزماً من اخوانهم في الشرق

فالفينيقيون إذاً هم اخوان العرب والكلدانيين والاشوريين والارامين والعبريين والادوميين والموابيين والاسرائيليين والانباط وغيرهم من الامم السامية التي قطنت ما بين النهرين وسوريا وبلاد العرب . وكان المصريون يطلقون كلمة «شاسو» على الاسرائيليين والادوميين سكان القسم الجنوبي الشرقي من سوريا والعبريين على سكان سوريا المجزأة حتى مدينتهم قادش ويسم هذا الاسم الارامين أحياناً ويميزون بين الاثنين في بعض الاحيان . ويقولون عن الكنعانيين أو بالاكثر سكان الشواطىء الفلسطينية حتى الكرمل «خارو»

أما الفلسطينيون سكان شواطىء فلسطين بعد القرن الثاني عشر قبل الميلاد فليسوا من الكنعانيين بل هم شعب غريب غزا البلاد في نحو القرن الثاني عشر قبل المسيح ويقال انهم جاؤوا من كريت وانضم اليهم بعض أعداء الفينيقيين من سكان الشواطىء الايجية . فاذاً هم ليسوا بساميين وهذا يتفق مع أنباء التوراة فانك لا تجد ذكر الفلسطينيين قبل ايام القضاة واسمهم في المكاتبات المصرية القديمة «فلاسطي» أو «بلاسطي» ثم تغلب اسمهم على فلسطين كلها

ولقد كان حب الاستقلال أكبر العلل في ضياع استقلال الشعوب السامية وكانوا يلجأون الى نظام المدن فكل جماعة قوية تؤلف قوة مستقلة وتشيد مدينة منيعة في نقطة معينة تحيطها بسور حصين وكان أهل كل مدينة يقيمون لهم هيكلاً للعبادة وهذه التفرقة أضعفت

وحدثهم حتى وقف احمس في معركة مجدو التاريخية وخاطب جنوده قائلاً « انكم ان انتصرتم اليوم على أعدائكم تضيمون على القصر مدينة والقصر ملك » مشيراً الى الحلف الذي تم بين تلك المعركة بين ملوك البلاد وزعمائها تحت زعامة ملك قادش لصدّ زحف المصريين. ولكن في تلك الفوات المفككة ان تقف في وجه الفاتح العظيم وجيشه المنظم المتحد تحت قيادة واحدة . فما حمي وطيس القتال حتى أخذت تلك الجموع المتألبة دون نظام تام في التراجع وتفرقت شذر مذر ووقع ملك قادش أسيراً وتم الفوز للمصريين

اما الحثيون الذين اخضعوا شمالي سوريا ودانت لهم البلاد فهم ليسوا من الساميين وان كانوا قد اختلطوا بأهل البلاد وغلبت عليهم مدنيتها ويستدل من أخبارهم انهم انتشروا في شمالي سوريا حتى البحر الايجي وقال ان الدردناويين الذين جاء ذكرهم في الياذة هوميروس هم منهم

وكانت أرضهم الى الشمال الغربي من النهرين وهناك رسخت مملكتهم وأخذوا يتقدمون شرقاً وغرباً حتى عاد الاشوريون في ابان دولتهم الثانية فقاتلوهم وأجلوهم عن البلاد تباعاً ومزقوا شملهم ولم تقم لهم من بعد ذلك قائمة

ويؤخذ من أنباء مصر القديمة ومما ورد في التوراة ان الفينيقيين كانوا يلقبون أولاً بالصيدونيين لان صيدا هي اول مدينة أقاموها وكانت جزيرة صغيرة منفصلة عن البحر ثم اتصلت بالبر تباعاً . وبقي اسم الصيدونيين مشتملاً على الصوريين ايضاً فكانوا يقولون عن ابعل ملك صور ابعل ملك الصيدونيين وبقيت هذه التسمية لصيدا حتى اشتهر اسم صور وامتدت سطوتها الى ما وراء البحار ثم لما اتصل الصيدونيين باليونان أطلق عليهم هؤلاء اسم فينيقيين اي ناقلي التجارة وعرفوا بهذا الاسم عند الاوروبيين الى يومنا هذا

ويزعم الفينيقيون ان مدنهم القديمة قامت قبل المسيح بنحو ٣٠٠٠٠ سنة ولكن هيرودوتس يذهب الى ان صور بنيت قبل عهده بنحو ٢٣٠٠ سنة اي في نحو سنة ٢٧٥٦ قبل المسيح ويقول مناندر الافسوسي ان الصيدونيين انشأوا صور قبل خراب تروادة بمئة اي نحو سنة ١١٩٨ ق . ب . ولكن ذكر صور ورد في مكاتبات تل العمارنة (الامارة) فيما بين ١٤٠٠ — ١٥٠٠ ق . م . ولفظها صور وقيل عنها « ان الماء يحمل اليها من البر المحاذي لها وان السمك فيها مثل الرمل » . وجاء في هذه المراسلات ان ربها باد ملك جبيل وأبيمالك ملك صور انضما الى المصريين كما ان صيدا وارواد انضمتا الى الحثيين

ومع ان سهل صيدا أوسع عماراً من سهل ارواد وسهل صور الا ان ارواد اشتهرت بمناعتها وشدة مقاومتها للفاتحين الذين هاجموا سوريا في العهد القديم من الشمال ثم جاء دور صور بعدها فكانت تصمد للفاتحين وتثبت أمامهم طويلاً الا ان الفينيقيين لم يكونوا اهل حرب

وبلاء بل كانوا اهل تجارة وعطاء ولما اتسعت تجارتهم وبلغت أقصى الصور كانت قوتهم دون حاجتهم فاستعانوا بالمستوزقة من الجنود الغرباء وهذا ما فتّ في عضدهم وقضى على سطوتهم وسلطانهم فأضاعوا المركز الممتاز الذي كان لهم وحلت الامم المتغلبة مكانهم

وكان الجبيليون يعتقدون ان مدينتهم هي اقدم مدن العالم وان آل اله جبيل كان اول من غادر البلاد فغزا مصر وبلاد اليونانيين وصقلية وليبيا ومدن مكانها ووضع أسس البلاد العظيمة في كل مكان ويفهم من هذا ان جبيل أقدم من دمشق لان المدينتين اراميتان فلا يدعي الجبيليون مثل ذلك عبثاً والجبيليون هم الذين بنوا بيروت ومعناها بالفينيقية السرو كما يجوز ان تكون مأخوذة من كلة بير ومعناها في الفينيقية بير كالعربية

وبعد آل جاءت عشتاروت الهة صيدا فسارت في أنحاء المعمور تشاهد البلدان المختلفة وتلاها ملكارث اله صور فأتمّ عمل الآلهة باكتشاف الامصار التي لم يعرفها أسلافهُ واخضاعها

ويظهر ان حوض البحر المتوسط كان تحت رحمة السفن الفينيقية التي كانت تشق عبابه وتحمل التجارة ، للامم المتوطنة على شواطئه او تنقل حاصلاتهم وتجارتهم الى كل مكان حتى قام اليونان فالرومان فغيرهم لمزاحمتهم في هذا الميدان — وهكذا انتشرت قصة كنيراس ملك بيلوس (جبيل) والد ادونيس (تموز) في قبرص . اما في كريت فيروون القصة بطريقة تختلف عن هذه فيقولون ان اوربا بنت ملك صيدا حملها زفس رب الآلهة عند اليونان القدماء وهو متخف بزي ثور ثم سار قدموس ملك صيدا يبحث عنها فزار قبرص ورودس وجزر الارخبيل ثم جاء بلاد اليونان وهناك بنى طيبة المدينة اليونانية القديمة الواقعة الى الشمال من أتينا في وسط غابات البرنا

ولم يكتف الفينيقيون ايّان عزم بانشاء العلاقات التجارية بل بنوا لهم مدناً خاصة على شواطىء البحر المتوسط في كل جهة ومكان حتى على الشاطىء الغربي من آسيا الصغرى فكانت لهم مرافىء بنوها لانفسهم وجعلوها مستودعات لبضائعهم وتجارتهم منها : الكبيرة . والماسورة . وبجدلة . وسديمة . وغيرها ومن اسمائها يفهم الانسان انها فينيقية . واحتل الجبيليون بيلوس في البحر الايجي والصيدونيون الباروس وغيرا وكان الصوريون يشترون أو يجمعون الاصداف الحلزونية المعروفة بالاسم اللتيني Marex trueulus لاستخراج الاصبغة الارجوانية منها وطريقتهم في ذلك انهم يكسرون الصدفة بمطرقة كبيرة فيخرج الحيوان الحلزوني منها فيسحقون رأسه ويستخرجون منهُ مادة صفراء يعالجونها بماء البحر في اناء خاص وبعد حضخضة وتحريك يتسران مدة ثلاثة أيام حتى يغلي المزيج في أوان رصاصية على نار خفيفة ثم يصفون المزيج بقطعة قماش حتى لا يعلق به شيء من الفضلات وهكذا يمدون ذلك الصباغ الذي اشتهرت به صور قديماً لصبغ الاقمشة باللون الارجواني الجميل

﴿ سفن الفينيقيين ﴾ يذهب الاستاذ برستد الى ان مصر كانت اول بلاد جازت سفنها عبر البحار وهو يرجح ان الفينيقيين اتبعوا الطراز المصري فقلدوا سفن الدولة الرابعة التي بلغت من العز شأواً بعيداً والمؤرخون فريقان فريق متعصب لمصر ينسب اليها الكثير من فضل الامم الخالية ومفاخرها وفريق متعصب للكلدان يرد فضل السبق لبابل ام المدنية في عرفهم

ومن يتتبع تاريخ الفينيقيين منذ نشأتهم يجد انهم اخذوا عن المصريين الكثير من عاداتهم وعقائدهم الدينية فالبسوا بعض آلهتهم شيئاً من الزي المصري وزانوا الصولجان الفينيقي برؤوس الحيوانات او شكل الصليب او قرص الشمس او الجعران المجنح حتى انهم في جبيل جلاوا رأس بعلة جبيل بقرون البقر ، محاولين تشبيهها بحاتور . وفي ارواد جعلوا بعل تلك المدينة واقفاً على اسد يتجول في العلا ورغماً عن ان صورة ذلك البعل لا تزال ظاهرة بشكلها الذي يتشبث مع الاساطير الكلدانية الاّ ان ملابسه اعتراها التبديل فألبس البرود المخططة ووضع في عنقه عقد وفي ذراعيه اساور لم يكن يضعها الفينيقيون قبل ذلك ووضعوا على رأسه التاج الابيض يعلوه الجناحان المصريان

وهكذا المذابح فانها اتخذت تدريجيًّا الشكل المصري حتى المدافن طرأ عليها بعض التغيير فترى في ارواد قبراً عظيماً اعلاه هرمي الشكل مع ان ارواد ابعد المدن الفينيقية عن مصر . والذي يشاهد قبر حيرام ملك صور يجد شبهاً كبيراً بينهُ وبين تبور طبية . اما الصوريون فكانوا اشبه بجرمان اليوم او باليابانيين فكانوا امهر الصناع يقلدون سلع العالم القديم ويصنعون منها الكثير ويبيعونهُ بأرخص الاسعار . ومع ان الفقراء في فينيقيا لم يتأثروا كثيراً بمخالطة المصريين ولا استعملوا المصنوعات المصرية لغلاء ثمنها الاّ ان الامراء والاعيان كانوا يستعملون الكثير من المصنوعات المصرية الاصلية او المقلدة التي اجاد الفينيقيون صنعها حتى انها كانت تضاهي المصنوعات الاصلية بل تفوقها دقة صنع

﴿الالف باء﴾ من الامور التي اختلف فيها العلماء اختراع الابجدية فان اليونان يذكرون في اساطيرهم انهم اخذوا الالف باء عن الفينيقيين وتابعهم في ذلك جمهرة الباحثين المدققين رغم محاولة فريق المتحمسين لمصر غمط فضل الفينيقيين كما فعل تمبوليون العالم الأثري الشهير الذي اكتشف حجر رشيد وحل بواسطته رموز الخط الهيروغليفي وشايعهُ في ذلك دي روجيه فيما كتبهُ تحت عنوان «مذكرات عن الاصل المصري للابجدية الفينيقية» ورسم اشكال الحروف الفينيقية وما يماثلها من اليونانية ثم قابل ذلك بالحرف المصري الخراطي وذكر ان المصريين لم يكونوا يفرقون بين الجيم والكاف فاستعملوا نفس الحرف للجيم والكاف في مجدو وكركيش

ولتنسب آراء العلماء في هذا الموضوع وتباين مذاهبهم يتعذر على الباحث استخراج نتيجة

صريحة بيد انّ من يتتبع آراء جمهرة العلماء وأساطير الاولين يخرج بهذه النتيجة البينة وهي ان الفينيقيين كانوا اول من وضع الابجدية بشكلها النهائي ومنهم اخذ اليونان حروف الالفباء ثم نقلها الرومان . فأوربا اذاً مدينة للفينيقيين بحروف الهجاء ولغة العلم والعرفان كما هي مدينة لاخوانهم العرب بالارقام العددية

ولغة الفينيقيين هي اخت العبرانية تدخل تحت نطاق اللغة السامية الشمالية ولكن الشعبين افترقا منذ القديم وطرأ على كل من اللغتين تغيير وتبديل كثير . اما السريان (الاراميون) فانهم يتكلمون نفس اللغة الفينيقية وهي لغة بابل وأشور السامية . ولم يبق من يتكلمها في سوريا الاّ نفر قليل في بعض قرى دمشق ويستعملها السريان والطائفة المارونية في الطقوس الدينية فقط

﴿ تاريخ فينيقيا بالاختصار ﴾ لم ينشىء الفينيقيون دولة متحدة مع الداخلية بل اكتفوا بمدنهم الثلاث صور وصيدا وأرواد وبنوا لهم مدينة طرابلس لتكون منتدى يجتمعون فيه لتقرير الامور العامة وكانت سفنهم تحمي مدنهم في البحر ولبنان يرد عنهم عاديات الخصوم في البر

أنشأ الفينيقيون صيدا أولاً ثم أرواد فصور ثم طرابلس . وانشأوا الكثير من المدن الساحلية الصغيرة لتاجرهم واستمر الفينيقيون في تقدم مستمر على عهد الدول السامية الاولى حتى قام الحثيون فكانت سوريا ميداناً للقتال وانقسم الفينيقيون قسمين قسماً يؤيد مصر وهم أهل صور واخوانهم الاراميون اهل جبل وقسماً يؤيد الحثيين وهم صيدا وارواد لقرب هذه لارض الحثيين وتعرض صيدا لهجمات الحثيين البرية وكانت الحرب سجالاً بين هاتين القوتين فوقفت حركة الاخذ والعطاء وضعفت قوة البلاد من جراء هذه الحروب . ثم تلا تلك الحالة بين وعيسى الثاني والحثيين فهدأت الحالة وأخذت البلاد في الانتعاش وفي هذا العهد بنى حيرام ملك صور الهيكل لسليمان وقدم لهُ خشب الارز الذي تود الفينيقيون ان يحملوه لمصر لبناء بها كلها العظيمة وقصورها الباذخة

ثم توالت على سوريا المحن فجاء الفلسطينيون واجتاحوا البلاد ودمروا معاقلها وخربوا مدنها وأهلكوا السكان واحتلوا جنوبي سوريا من يافا الى غزة

ثم غزا تغلت فلاسر الاول ملك اشور البلاد واحتل أرواد في نحو سنة ١١٠٠ ق.م . وفي سنة ٨٧٦ هاجمها اشور ناصربال الثالث فسلمت مدنها لهُ ودفعت الجزية . وعاد فغزاها تغلت فلاسر الثالث في سنة ٧٤١ . ومما ورد في اخبار فتوحات هذا الملك أن حيروم ملك صور كان من ضمن الملوك الذين دفعوا لهُ الجزية . ومن انباء هذا العهد ان ملك صور اصبح ملك صيدا ايضاً وانهُ أنشأ لهُ مستعمرة في قبرص . وجاء بعد ذلك اسرحدون فأخضع صيدا ونزع من صور جميع المدن الخاضعة لها . وجاء في أنباء هذا الملك ان ملك صيدا ثار عليه فقصد صيدا وفتحها

غزة وهدمها وقتل بأهلها فتكاً ذريعاً حتى اعمى اسم ملكة صيدا من الوجود على عهد كورش الفارسي الذي فتح فينيقيا بعد ذلك . وهكذا توالت المحن على فينيقيا فلم تكن تنجو من غزوة حتى تقع بأشر منها . ولما جاء نبوخذ نصر ملك بابل حاصر صور مدة ثلاثة عشر سنة ثم سلمت بشروط موافقة للفريقين

وبعد ذلك قامت مملكة الاسكندر فحارب الفرس وانتصر على داريوس في سهل ابسوس الى الشمال من سوريا . ثم ضرب صور ضربة قاضية بعد حصار سبعة اشهر ولم يستطع الاسكندر فتح صور حتى بنى سداً بينها وبين البر الحاذي لها وساعدته سفن صيدا والمدن الفينيقية وسفن الاغريق التي كانت تحاول أخذ الثأر من الفينيقيين لما أنزلوا بالاغريق من الويلات في حرب الفرس واليونان اذ عاونت عمارة الفينيقيين الفرس ونقلت جيوشهم وسلاحهم ومؤنهم وذخيرتهم عبر البحر الى بلاد اليونان . ولكن روح صور وفينيقيا لم تقهر فبقي من بقي في البلاد ورحل الكثيرون منهم الى المستعمرات التابعة في شمالي افريقيا واسبانيا . وهناك قامت قرطاجنة ونازعت رومية سيادتها ردحاً من الزمن الا ان التنافس بين فريقي الفينيقيين المتسلطين على قرطاجنة أضاع من الفينيقيين مجدهم ومملكتهم الغربية . فبينما كان هانيبال بطل قرطاجنة يفوز في معركة تلو معركة في ايطاليا ، وقد قهر رومية في كل موقعة لتثبت بينه وبين الرومان مع تفوق عددهم كان مناظروه في قرطاجنة يحيكون الدسائس لاسقاطه فلم يرسلوا له النجدات ولا الذخيرة التي يحتاجها فتشل في هجومه بعد ان اجتاح البلاد واحتل نصف ايطاليا وكسر كل جيش قابله من جيوشها وزحف من اسبانيا منتصراً أين سار وقطع الالب بجيشه الظافر كما فعل نابليون بعد ذلك بألفي سنة متتبعاً خطوات ذلك الفاتح العظيم

وكان في اخفاق قرطاجنة في حربها مع رومية القضاء المبرم على الفينيقيين في الغرب فانه بعد ان هادنت روما قرطاجنة مدة عادت فضربتها الضربة القاضية وتشتت الفينيقيون في شمالي افريقيا وبقيت لغتهم تستعمل في تلك البلاد حتى القرن الخامس بعد المسيح حين لم يبق احد يتكلم بها

وهكذا قضي على الفينيقيين في بلادهم وستمرانهم فخضعوا في بلادهم لليونان ثم للرومان فالعرب فالمماليك فالعثمانيين ، الى ان كانت الحرب العظمى فاستقلت البلاد تحت ظل الانتداب الفرنسي وانضمت صيدا وصور وطرابلس الى لبنان الذي ضم فينيقيا القديمة ما عدا عكا الى الكرمل جنوباً وارواد وطرسوس وسمرا شمالاً

ولكننا نرجو ان يقرب الوقت الذي تنضم به الامم السامية تحت حلف عام يوحد المصالح والغايات ويفني التحزب والمطامع الشخصية التي كانت اكبر عقبة في سبيل الاتحاد منذ فجر التاريخ الى الآن